This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقرارات الجامعة.

ويمنع منعا باتاَ نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الالكتروني الى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.

د. شيخة الدوسري
مصر عربي
الطبع

البلاغة والنقد الأدبي

الباب الثالث

الكناية

الباب الثالث

الكناية

تعريفها وأركانها:

والكناية لغة أن نتكلم بالشيء ونريد غيره، وهي مصدر كالعناية والرماية والهداية، يقال: هدى هداية، ورعى رعاية ورمى رماية وكنى كناية، والظاهر أن فعلها من ذوات الياء، كنى يكني مثل هدى يهدي ورمى يرمي، وحكى بعضهم فيه لغة أخرى وهي أنه واوي واستشهدوا له بما أنشده الجوهري[1]:

وإنِّي لأكْنُـــو عَـــنْ قَـــذُورَ بغَيْرِهـــا وَأعْـــرِبُ أحْيانـــاً بِهـــا وَأُصـــارِحُ

(وقَذُور) بفتح القاف وضم الذال: اسم امرأة. والأول أفصح لأنهم يقولون في المصدر: (كناية) ولم يقولوا: (كناوة).

ومعرفة المعنى اللغوي تمهد لنا للمعنى الاصطلاحي، ومن هنا فقد عرفوا الكناية في الاصطلاح (بأن تريد المعنى وتعبر عنه بغير لفظه) كأن تريد إثبات الكرم لإنسان ما، ولكنك تعبر عنه بغير اللفظ الموضوع له، فتقول مثلاً: (كثير الرماد) ولا شك أن كثرة الرماد لم توضع لمعنى الكرم، وهذا الذي اختاره الشيخ عبدالقاهر - رحمه الله - ، وقريب منه التعريف الذي اشتهر فيما بعد للكناية وهو (أن تطلق اللفظ وتريد لازم معناه مع قرينه لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي).

وهذا التعريف نستطيع ونحن نلقي الضوء عليه أن نفرق بين الكناية وبين المجاز، فلقد عرفت أن المجاز لا بد فيه من قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، أما القرينة في

(١) الصحاح، ٢/ ٤١٥.

٧٥٨٤

الكناية فلا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، بل يجوز إرادته كذلك، وإنما قلنا: يجوز إرادته لأن بعض الكنايات لا يمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي للفظ، ومع ذلك فإن هذا لا يدخلها في المجاز، فالمعول في الكناية إذن أن تعبر عن المعنى بغير لفظه.

ومما سبق تدرك أن الكناية لا بد لها من أركان ثلاثة:

١ - اللفظ المكني به.

٢ - المعنى المكني عنه.

٣ - القرينة التي تجعل المعنى الحقيقي غير مراد سواء كانت هذه الإرادة ممكنة أو غير ممكنة.

وإليك أمثلة توضح ذلك كله:

إذا أردت أن تعبر عن ترف امرأة من النساء وعزها وغناها، يمكنك أن تعبر عن ذلك بقولك: «فلانة نؤوم الضحى» فنؤوم الضحى هو اللفظ الذي كنيت به، والترف والدلال هو المعنى الذي كنيت عنه، والقرينة معنوية يدل عليه السياق، ولا ريب أن بإمكانك أن تريد المعنى الحقيقي كذلك، أي أنها كثيرة النوم تظل نائمة إلى هذا الوقت، وكذلك إذا قلت: «فلان كثير الرماد» فإنك تكني به عن كرمه، فالركن الأول: اللفظ الذي كنيت به، وهو «كثير الرماد» والركن الثاني: المعنى الذي كنيت عنه، وهو (الكرم) والركن الثالث: القرينة التي فُهمت من تضاعيف الكلام وسياقه.

وهذا اللفظ قد لا يكون له وجود، فكثرة الرماد مثلاً لا وجود لها اليوم لأن أكثر الناس لا يستعملون الحطب، ومع هذا فتظل هذه الكناية باقية صحيحة الاستعمال بينة في أسلوبها، وقد نكني عن طول فلان بأنه (طويل النجاد) وهي حمائل السيف، وأنت تعلم أنه لا سيف اليوم ولا سكين، ولكن هذه الكناية باقية، وقد تعبر عن كرم شخص وعزه بقولك: «المجد بين ثوبيه» كناية عن عزه وسؤدده، وأنت خبير بأن هذا التعبير لا يجوز أن نحمله على الحقيقة لأن المجد ليس شيئاً محسوساً حتى يلقى بين الثوبين.

بعد هذا تدرك أن أسلوب الكناية من الأساليب البيانية التي يتسابق فيها البلغاء وتتفاوت فيها أقدامهم ومنازلهم لأنه يحتاج إلى اللمحة الذكية والغوص على المعنى،

والمجيء باللفظ الذي يمكن أن يدل عليه دون تكلف أو تصنع، فنحن في الكناية ننطق باللفظ وبالجملة من القول، لكننا نريد بها معنى آخر ولا نريد يقيناً معناها الحقيقي، ولا يضيرنا بعد ذلك أكان المعنى الحقيقي ممكناً كقولك: «نؤوم الضحى» و«كثير الرماد» أم غير ممكن كقولنا: «المجد بين برديه» وسواء كان لهذا اللفظ وجود، أم لم يكن له وجود كقولنا: «كثير الرماد»و«طويل النجاد» فقد لا يكون رماد ولا نجاد ولكن تبقى للفظ قيمته التعبيرية وأسلوبه البياني.

أقسام الكناية:

ولقد أطبق العلماء على تقسيم الكناية إلى أقسام ثلاثة، ذلك لأنهم بعد البحث والاستقصاء وجدوا أن المعنى المكني عنه إما أن يكون صفة كقولهم: «كثير الرماد» فإنه كناية عن الكرم، والكرم صفة - كما تعلم - لأنهم يقصدون بالصفة الصفة المعنوية وليس النعت عند النحويين، وإما أن يكون موصوفاً وذلك كقول أمير الشعراء[1]:

وَلِي بَيْنَ الضُّلوع دَمٌ ولَحْمٌ هُما الوَاهِي الذي ثَكِلَ الشَّبابا

فقد كنى بقوله هذا عن القلب، وأما أن يكون نسبة والنسبة هي إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، وذلك كالمثال المتقدم «الكرم بين برديه» والمراد إثبات الكرم للممدوح وسنحاول توضيح كل من هذه الأقسام الثلاثة ومن الله العون.

أولاً: الكناية عن الصفة:

ولكي يسهل عليك معرفة هذا القسم نبادرك القول بعلاماته ومميزاته، فضابط هذا القسم أن تذكر الموصوف وتنسب له صفة، ولكنك لا تريد هذه الصفة وإنما تريد لازمها ففي قولك: «فلان كثير الرماد» ذكر للموصوف وهو فلان، وذكر لصفته وهي كثرة الرماد، ولكنك لم ترد هذه الصفة نفسها، بل أردت صفة لازمة لها وهي الكرم؛ لأن كثرة الرماد تنشأ عن كثرة النار، وهذه تنشأ عن كثرة الحطب، وهي تنشأ عن كثرة الطبخ، وذلك نتيجة كثرة الضيفان، والكرم لازم لذلك كله، وفي قولك: «خديجة نؤوم الضحى»

---

(١) الشوقيات، ١/ ٦٧.

ذكر للموصوف (خديجة) وذكر لصفتها (نؤوم الضحى) ولكنك لم ترد الصفة نفسها وإنما أردت لازم هذه الصفة وهو الترف، لأن (نوم الضحى) ناتج عنه.

وفي قولك: «فلان طويل النجاد» ذكر للموصوف وذكر لصفته ولكنك تريد غيرها (طول القامة) ذلك لأن السبب في طول النجاد طول القامة، وقولك: «نحن أمة لا نملك قلم الرصاص» كناية عن حرية التعبير، و«نحن أمة لا تملك سكيناً» كناية عن الضعف، فلقد ذكرت الموصوف، ولكن الصفات التي ذكرتها ليست هي المقصودة بالذات، إنما قصدت ما تنشأ عنه هذه الصفات، وقولك: «ما أضيع الذين يطأطئون الجباه لغير الله» فلقد ذكرت الموصوف وذكرت له صفة وأردت لازمها وهو الذل.

ومن هذا قولهم: «فلان جبان الكلب مهزول الفصيل» كناية عن الكرم، فإن (جبان الكلب) هو من اعتاد كلبه رؤية الزائرين، ومن عادة الكلب أن ينبح كلما رأى غريباً في البيت، لكن كثرة الزائرين جعلت الكلب يترك نباحه، وكثرة الزائرين تدل على الكرم كما تعلم، ومن هذا قول الشاعر[1]:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي ... جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزُولُ الفَصِيلِ

وأبدع من هذا قول نُصَيْب[2]:

لِعَبْدِ العَزِيزِ عَلى قَوْمِهِ ... وَغَيْرِهِمُ مِنَنٌ ظَاهِرَة
فَبابُكَ أسْهَلُ أبْوابِهِمْ ... وَدَارُكَ مَأهُولَةٌ عَامِرَةٌ
وَكَلْبُكَ آنِسٌ بِالزَّائِرِينَ ... مِنَ الأمِّ بِابْنَتِها الزَّائِرَة

وأبدع منه قول الآخر[3]:

يَكَادُ إذا مَا أبْصَرَ الضَّيفَ مُقْبِلاً ... يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أعْجَمُ

فانظر إلى هذه المبالغة في الكناية كيف جعل الكلب يكاد يكلم الضيفان، ويرحب بهم مع أنه لا يستطيع النطق، وأما قولهم: مهزول الفصيل فهو كناية عن الكرم كذلك،

---

(١) هذا البيت لابن هرمة، الصناعتين، ص٢٤٢.
(٢) القصيدة في مدح عبدالعزيز بن مروان، ديوان نصيب بن رباح، ص٩٩.
(٣) هذا البيت لابن هرمة، الحماسة ٢/ ٢٤٨.

فالفصيل ابن الناقة، إلا أن كثرة الضيوف وما يشربونه من لبن النياق، تجعل الفصيل مهزولاً لأنه لا يشبع من لبن أمه، ومنه قول الشاعر وقد تقدم من قبل:

لا أُمْتِعُ العُوْذَ بِالفِصال وَلاَ أَبْتاعُ إلاَّ قَرِيبَةَ الأَجَلِ

فهو كناية عن الكرم لأنه لا يمتع النوق بأبنائها وفُصْلانها، فإنه ينحرها، كما أنه لا يبتاع إلا قريبة الأجل، فهي لا تمكث في بيته بل تنحر عند دخولها بيته.

ومن هذا النوع من الكنايات قول الشاعر:

لاَ يَرْفَعُ الضَّيْفُ عَيْناً فِي مَنَازِلِنا إلاَّ إلى ضاحِك مِنَّا ومُبْتَسِم

وهذه كناية بديعة أخرى عن الكرم، إذ يلزم من الضحك والابتسام في وجه الضيف الحفاوة به وهذا يستلزم الكرم، وهو من (الإيماء) الذي سيمر بك بعد قليل.

وأبدع منه قول المتنبي في رثاء أحدهم[1]:

أَلَسْتَ مِنَ القَوْمِ الأُلى مِنْ رِماحِهِمْ نَداهُمْ وَمِنْ قَتْلاَهُمُ مُهْجَةُ البُخْلِ

فانظر كيف استعار للبخل مهجةً، ثم للكرم رماحاً طعنت هذه المهجة، فهذه كناية عن كرمهم وإفنائهم للبخل بجودهم.

ومنه قول الخنساء في أخيها صخر[2]:

طَوِيلُ النِّجادِ رَفيعُ العِمادِ كَثيرُ الرَّمادِ إذا مَا شَتَا

وهذه ثلاث كنايات عن ثلاث صفات، الأولى كناية عن الطول وهي (طويل النجاد)، والثانية عن السؤدد والرياسة وهي: (رفيع العماد)، والثالثة عن الكرم وهي (كثير الرماد).

---

(١) القصيدة في رثاء أبي الهيجاء عبدالله بن سيف الدولة.
الألى: بمعنى الذين، نداهم: كرمهم، يقول: - مخاطباً الميت - :
أنت من القوم الذي كرمهم من سلاحهم، والبخل من قتلاهم، أي: أنهم أفنوا البخل بجودهم.
(٢) لم أجد هذا البيت في ديوانها.

ومنه قول المتنبي[1]:

فَمَسَّاهُمْ وَبُسْطُهُمُ حَرِيرٌ وَصَبَّحَهُمْ وبُسْطُهُمُ تُرابُ

يعني أنهم كانوا في المساء يتصفون بالعز والأمن، ولكن أصبحوا يتصفون بالذل، وهما كنايتان بديعتان (فبسطهم حرير) كناية عن عزهم وغناهم و(بسطهم تراب) كناية عن ذلهم وفقرهم، ومنه قول المتنبي[2]:

تَشْتَكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْقِ إليْها وَالشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ

وهي كناية بديعة كذلك كنى بها عن صفة، وهي كذب محبوبته يقول: إنها تشتكي مر الفراق، كما أشتكيه، ولكنها كاذبة في شكواها وفيما تدعيه من شوق، فإن الشوق الصادق يبرح بصاحبه فيجعله نحيل الجسم، وهذا ما أصابني بالفعل، أما هي فليست كذلك، ومنه قوله يصف فرسه[3]:

وَأصرَعُ أيَّ الوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وَأنزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أرْكَبُ

يقول: إن فرسه سريع أياً كان الوحش الذي يتبع هذا الفرس، ولكنه حين ينزل عنه لا يجد له تعباً ولا نصباً ولا سآمة، فكلتا حالتيه سواء، حينما يركبه وحينما ينزل عنه، فهو فرس كريم عتيق، ومنه قوله في مديح سيف الدولة[4]:

إلى كَمْ تَرُدُّ الرُّسْلَ عَمَّا أَتَوْا لَهُ كَأَنَّهُمْ فِيما وَهَبْتَ مَلامُ

ومعنى البيت: أنك ترد رسل ملك الروم الذين جاؤوا يطلبون الهدنة، غير مبالٍ ولا متردد، وهذا الرد المنبعث من الثقة والقوة والجرأة والشجاعة، وما أشبه ردك لهؤلاء بردك الملامة عن نفسك بما وهبت من عطايا للسائلين، فكلمة (ملام) متعلقة بـ (ما وهبت) فهنا صفتان: الشجاعة والجود وقد كنى عنهما كما رأيت.

---

(١) ديوان المتنبي، ١/ ٢١٣.
(٢) ديوان المتنبي ٣/ ٢٦٧.
(٣) ديوان المتنبي ١/ ٢٠٤.
(٤) ديوان المتنبي ٣/ ١١٠.

ومنه بيت الحماسة[1]:

لا يَسْأَلُونَ أخاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... في النَّائِباتِ عَلَى ما قالَ بُرْهانا

والمقصود بهذا القول أن يبين شجاعتهم وإسراعهم في إجابة الداعي وقال النابغة يصف نساءً وهن في الأسر[2]:

يُخَطِّطْنَ بالعيدانِ في كُلِّ مَنْزِل ... ويَخْبَأْنَ رُمَّانَ الثُّديِّ النَّواهِدِ

وشبيه بهذا قول ذي الرمة[3]:

عَشِيَّةَ مَالِي حِيلَةٌ غَيْرَ أنَّنِي ... بِلَقْطِ الحَصَى والخَطِّ في الأرضِ مُوْلَعُ

الخُطُّ وأمْحُو الخَطَّ ثُمَّ أُعِيدُهُ ... بِكَفِّيَّ والغِرْبانُ في الدَّارِ وُقَّعُ

والتخطيط بالعيدان كناية عن الهم والحزن. (والغربان في الدار) كناية عن خلوها من الناس.

ومنه قول طرفة بن العبد[4]:

أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذي تَعْرِفُونَهُ ... خَشاشٌ كَرَأسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

وهذا كناية عن الحذق والذكاء والمهارة.

ومنه قول أبي تمام في مدح ابن شبانة[5]:

فَإنْ أنا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّي صَاغِراً ... عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أنني غَيْرُ حامِدِ

يقول مخاطباً ممدوحه: إذا لم يبلغ مدحي لك مبلغاً من الحسن والجمال بحيث يُجبِر حسنُهُ عدوَّك أن يحفظه وينشده - وبالتالي يكون هذا قمة الصغار والذل له، إذ يتغنى

---

(١) شرح ديوان الحماسة، ١/ ٢٣.

(٢) ديوان النابغة ص٩٧، العمدة ١/ ٢٠٦.

(٣) ديوان ذي الرمة، ص٢٧٤.. (والغربان في الدار وقع) أي: الدار خالية والغربان فيها.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص١٤٤. الضرب: الخفيف اللحم، خشاش: رجل لطيف الرأس ماض سريع الدخول في الأمور، المتوقد: الشديد النشاط.

(٥) ديوان أبي تمام ٢/ ٧٧، والقصيدة في مدح محمد بن الهيثم بن شبانة، وأراد أبو تمام بمدح عدو ممدوحه: حفظه مدحه - أي مدح أبي تمام - وإنشاده إياه.

بمدح عدوه - يقول: إذا لم يكن مدحي كذلك فلا تعدني مادحاً. فانظر كيف كنى عن جودة مدحه، ثم تخيل أيّ سعة من الخيال تمتع بها الشاعر، وأي: مستوى من الذوق بلغ.

ومن الكنايات المشتهرة كذلك (فلانة ناعمة الكفين) (نقية الثوب) و(فلان طاهر الذيل) فالجملة الأولى كناية عن الترف والدلال، وفي الثانية كناية عن العفة والثالثة كذلك، ومن الكنايات المشتهرة «قرع فلان سِنَّه» كناية عن الندم، لأن الإنسان حينما يندم يقرع أسنانه بعضها ببعض، و«فلان هجر الفأر بيته» كناية عن الفقر، و«فلان يشار إليه بالبنان» كناية عن الشهرة، و«فلان عريض القفا» كناية عن البله والخمول أو الغباء، ومنها قولهم: «فلان يمشي على بيض» إذا كان بطيئاً في مشيته، و«فلان ركب جناحي نعامة» كناية عن سرعته، ومنها قولهم: «فلان يمشي على ثلاثة» و«فلان لوت الليالي كفه على العصا»، هما كنايتان عن الكِبر والهرم، «فلان قلع أسنانه» كناية عن التجربة والحنكة، و«فلان لا يرى غيره» كناية عن الكِبر والإعجاب بالنفس، وقولهم: «فلان منخرق الجيب» كناية عن كثرة الإنفاق، «قوي الساعد مفتول العضلات» كناية عن القوة «رابط الجأش» كناية عن الشجاعة، «كثير الإخوان، لين الجانب» كناية عن حسن الخلق واليسر في المعاملة.

هذه الكنايات إذا أمعنت فيها النظر وجدت أن كل واحدة منها ذكر فيها الموصوف وذكرت له صفة، إلا أنها لم تكن هي المرادة، إنما المراد صفة غيرها، وهذا ضابط الكناية عن الصفة - كما عرفت من قبل - وهنا أمر آخر لا بد أن أنبه عليه، ارجع إلى الكنايات السابقة تجد أن بعضها كثرت فيه الوسائط على حين قَلَّت في بعضه الآخر، كما أنك تجد بعض الكنايات واضحة المأخذ، سهلة الاستنتاج، بينما يحتاج بعضها الآخر إلى تأمل وفكر، خذ مثلاً قولنا: «فلان كثير الرماد» ألا تجد أن هناك وسائط كثيرة بين المكني به والمكني عنه، أعني بين كثرة الرماد والكرم، لأن كثرة الرماد تستلزم كثرة النار وهذه تستلزم كثرة الحطب، وهذا يستلزم كثرة الطبخ، وهي تستلزم كثرة الضيفان المستلزمة للكرم، لكن قولنا: «فلان طويل النجاد»، و«فلانة بعيدة مهوى القرط»، وهما كنايتان عن الطول لا تستلزمان شيئاً، فإن طول النجاد يلزم منه طول القامة، وكذلك (بعيدة مهوى القرط) وهو ممتد من شحمة الأذن إلى الكتف.

فهاتان كنايتان لا تحتاجان إلى تأمل - كما رأيت - إحداهما كثرت فيها الوسائط، ويسميها السكاكي تلويحاً، والأخرى قَلَّت فيها الوسائط ويسميها السكاكي إيماءً وإشارة، أما إذا كانت الكناية محتاجة إلى تأمل كقولنا: «فلان عريض القفا» أو «عريضُ الوِسَادِ» وهما كنايتان عن البله والغباء - كما عرفت - لكن الأولى نجد فيها الوسائط أكثر من الثانية، فإنها تسمى رمزاً عند السكاكي، فالسكاكي نظر في تقسيم الكناية - إذن - إلى كثرة الوسائط وقِلَّتها من جهة، وإلى سهولة الاستنتاج من جهة أخرى فإذا كانت الكناية سهلة الإدراك وكثرت فيها الوسائط سماها تلويحاً كقولنا: «كثير الرماد» وإذا قَلَّت وسائطها مع سهولتها سماها إشارة وإيحاء كقولنا: «طويل النجاد» «بعيدةُ مهوى القرط»، أما إذا كانت بحاجة إلى تأمل وفكر فإنه يسميها رمزاً سواء كثرت وسائطها كقولنا: «عريض القفا» أم قَلَّت كقولنا: «عريضُ الوسادِ».

ثانياً: الكناية عن الموصوف:

ضابط هذا النوع من الكناية أن نذكر الصفة والنسبة ولا نذكر الموصوف المكني عنه، عرفت في القسم الأول وهو الكناية عن الصفة أننا ذكرنا الموصوف ونسبنا له صفة ما، ولكن لم تكن هي الصفة المرادة، وأظنك تلمح من هذا التعريف أن الكناية لا بد فيها من موصوف وصفة ونسبة، ففي الكناية عن الصفة نذكر هذه الثلاث، إلا أن الصفة المذكورة غير الصفة المرادة، فقولنا: «فلان كثير الرماد» ذكرنا فيه الموصوف ونسبنا له صفة معينة كنينا بها عن صفة أخرى.

أما في هذا القسم فنحن نذكر الصفة والنسبة فحسب ولا نذكر الموصوف، ولكي يتضح لك الفرق بين القسمين، ينبغي أن تعلم أن الصفة في القسم الأول كانت كناية عن صفة أخرى، أما الصفة في هذا القسم فإن الغرض من ذكرها أن نتوصل بها إلى الموصوف المحذوف المكني عنه، استمع مثلاً إلى قول شوقي الذي تقدم:

وَلِي بَيْنَ الضُّلوع دمٌ وَلَحْمٌ ... هُمَا الوَاهِي الذي ثَكِلَ الشَّبابا

وهو كناية عن القلب، ألا ترى أن المذكور هنا، والذي كنى به عن القلب ليس في الحقيقة إلا صفة لهذا القلب، فالقلب بين الضلوع والقلب دم ولحم. وهذه الصفات كما ترى لا يتصف بها إلا القلب، ألا ترى أنه لو اقتصر على الدم واللحم ما صلح أن يكون

كناية عن القلب، لأن اليد دم ولحم وكثير من الجوارح يمكن أن تكون كذلك، لكن الذي حسن الكناية هنا في هذا البيت أن مجموع هذه الصفات المذكورة لا تصدق إلا على القلب، ومن أمثلة هذا القسم قوله سبحانه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨]، ولكي تتذوق الكناية نبين لك أن الآية الكريمة جاءت رداً على العرب في جاهليتهم، وقد كانوا يكرهون البنات ويئدونهن ومع ذلك كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، فجاءت الآية ناعية عليهم مقررة جهلهم، مسفهة أحلامهم وعقولهم، يقول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف:١٥-١٦] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف:١٩].

ومعنى الآيات أنكم اصطفيتم البنين لكم وجعلتم البنات لله، جعلتم له من ينشأ في الحلية ولا يكون في خصومته مبيناً قوياً، وهذه صفة للنساء كما تعلم، فإنهن ينشأن في الحلي ولا يبنّ في خصامهن، وهو ما عناه شاعرهم حين قال[1]:

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتالُ عَلَيْنا ... وَعَلَى الغانِياتِ جَرُّ الذُّيُولِ

ففي الآية الكريمة كناية، فاللفظ المكني وهو قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ ..﴾ [الزخرف:١٨] أما المكني عنه فهو النساء، وإذا نظرت إلى الصفة وهي التنشئة في الحلية وجدتها مختصة بالنساء ولكن في أيامنا هذه استوى فيها الماء والخشبة وأصبح كل يشبه الآخر، وهذا يذكرنا بقول المتنبي[2]:

وَمَنْ في كَفِّهِ مِنْهُمْ قَناةٌ ... كَمَنْ في كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضابُ

وفيه كناية عن الموصوف كذلك، فهو يقول: إن رجالهم أصبحوا كالنساء لأن قوله «من في كفه قناة» كناية عن الرجال، و«من في كفه خضاب» كناية عن النساء.

---

(١) وهو عمرو بن أبي ربيعة.
(٢) ديوان المتنبي ١/ ٢١٣.

ومنه قول الشاعر[1]:

والقادِسِيَّةُ حَيْثُ زاحَمَ رُسْتُمٌ كُنَّا الحُماةَ نَهُزُّ كَالأشْطانِ
الضَّارِبينَ بِكُلِّ أبْيَضَ مُخْذَمٍ وَالطَّاعِنينَ مَجامِعَ الأضْغانِ

فإن مجامع الأضغان كناية عن القلب، لأنها صفة له في الحقيقة، ومنه قول البحتري في قصيدته التي يتحدث فيها عن طعنه للذئب[2]:

فَأتْبَعْتُهَا أُخْرَى فَأضْلَلْتُ نَصْلَها بحَيْثُ يَكُونُ اللُّبُ وَالرُّعْبُ والحِقْدُ

يريد أنه طعنه في قلبه ولكنه لم يذكر القلب، وإنما ذكر صفة كنى بها عن القلب، وهي قوله: «حيث يكون اللب والرعب والحقد»، ومنه قول الآخر:

قَوْمٌ تَرَى أرْماحَهُمْ يَوْمَ الوَغَى مَشْغُوفَةً بِمَواطِنِ الكِتْمانِ

فـ (مواطن الكتمان) صفة القلوب وقد كنى بها عنه، وهكذا إذا قلت: «صفا لي مجمع لب فلان» فأنت تريد القلب، ولكنك لم تذكره وإنما كنيت عنه بصفته، وهكذا تراهم يكنون عن القلوب بهذه الأوصاف المختلفة إلا أنها جميعاً تختص بالقلب كمواطن الكتمان، وهو كذلك مجمع اللب والرعب والحقد، وهو موطن الأسرار كما يقول أبو نواس في الخمر:

وَلَمَّا شَرِبْناها وَدَبَّ دَبيبُهَا إلى مَوْطِنِ الأسْرارِ قُلْتُ لَهَا: قِفِي

وهو الدم واللحم بين الضلوع - كما قال شوقي، ومنه قول المعري في وصف السيف[3]:

سَليلُ النَّارِ دَقَّ وَرَقَّ حَتَّى كَأنَّ أباهُ أوْرَثَهُ السُّلالا

---

(١) وهو عمرو بن معدي كرب، ديوانه، ص١٧٤. والبيت من قصيدة قالها بعد فتح نهاوند على يد النعمان بن مقرن.

(٢) ديوان البحتري ١/ ٣٧١.

(٣) السليل: الولد، السلال، والسل: داء يَدْنَفُ الإنسان منه، يقول: إن هذا السيف ولد النار لأنه نشأ في النار حين أخرج من المعدن، فتراه دقيق الشفرتين حتى كأنه ورث داء السل من أبيه، فدنف، أي: أجهده العشق. شروح ديوان سقط الزند ١/ ٩٨.

فقد كنى عن السيف بهذه الأوصاف التي سمعت من الدقة والرقة.

ومن الأمثلة المتقدمة تدرك أن الكناية عن الموصوف تنقسم إلى قسمين، فاللفظ المكني به قد يكون وصفاً واحداً، (كمواطن الأسرار) و(مجمع اللب والرعب والحقد)، وإما أن يكون أوصافاً متعددة لا بد منها جميعاً لتحقق الكناية، ألا ترى إلى قول شوقي الذي كنى به عن القلب بأنه بين الضلوع وبأنه دم ولحم، ولو أنه اقتصر على الدم واللحم ما صلحت هذه الكناية.

ويمكن أن نمثل لك بمثال آخر، وهو ما يذكره القوم في كتبهم «زارني حيٌّ مُسْتَوي القامة عَريضُ الأظفارِ» فمجموع هذه الصفات كناية عن الإنسان، ولو أخذنا كل صفة على حدة ما صلحت هذه الكناية، فلو اقتصرنا على كلمة (حي) لشارك الإنسان جميع الأحياء، ولو اقتصرنا على (مستوي القامة) فقط، لشمل ذلك بعض الجمادات أو بعض الحيوانات كالتمساح، ولعلك معي في أن هذا المثال ليس ذا قيمة فنية أو روعة بيانية، مع أن الأقدمين والمحدثين اجتمعوا على ذكره، ولم تعدم اللغة أمثلة حية مستلهمة من الواقع، كأن تكني بلون وطعم وشكل عن فاكهة معينة، وباللين والطيب والحسن والحساسية عن المرأة.

ولم لا نمثل لذلك ونحن نستصرخ الأمة ونهيب بها كي تقضي على المكر والجبن، والبخل والطغيان، والإفساد والحقد أليست هذه الصفات جميعاً يمكن أن نكني بها عن اليهود، لأن مجموعها منطبق عليهم.

ثالثاً: الكناية عن النسبة:

في القسمين السابقين كنينا بصفة عن صفة تارة، وبالصفة عن الموصوف تارة أخرى ولكننا في هذا القسم الثالث سنسلك مسلكاً آخر، سنذكر الصفة والموصوف إلا أننا بدلاً من أن ننسب هذه الصفة لصاحبها فسوف ننسبها لشيء آخر، والنسبة هي إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه. فالنسبة في قولنا: «المؤمنون أعزاء» هي إثبات العزة للمؤمنين، وفي قولنا: «المؤمن ليس جباناً» النسبة نفي الجبن عن المؤمن.

ولنبادرك بمثال ينير لك الطريق، إذا قلت: «فلان المجد بين ثوبيه» و«الكرم بين برديه» فأنت إنما تريد أن تثبت له الكرم والسيادة، وقد ذكرت هاتين الصفتين، كل ما في

مر أنك لم تنسبها لصاحبها، فلم تقل: الكرم والمجد لفلان، وإنما نسبتها لشيء آخر بردين والثوبين). ولما كانت النسبة إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، فلا بد أن نمثل لهذا نسم بنوعين من الأمثلة:

الأول: ما كانت الكناية فيه إثباتاً.

والثاني: ما كانت فيه نفياً.

أمثلة القسم الأول:

ومن أمثلة القسم الأول: المثال السابق، ومنه قولك: «لقد كثر المكر في ساحة أعدائكم أيها العرب، وها هو المكر قد نسج في ثيابهم» فهذه صفات كما ترى لم ننسبها للعدو مباشرة، إنما نسبت لشيء آخر: للساحة وللثوب، ولعل في هذا الأسلوب تزييناً للقول، ولعله أكثر تأثيراً في النفوس كذلك. ومن هذا قول زياد الأعجم[1]:

إنَّ السَّماحَةَ وَالمُروءَةَ وَالنَّدَى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابنِ الحَشْرَجِ

فقد ذكر هذه الصفات ولم ينسبها لابن الحشرج مباشرة وإنما جعلها في قبة مضروبة عليه، ومنه قول أبي نواس[2]:

فَمَا حَازَهُ جُودٌ وَلاَ حَلَّ دُونَهُ ... وَلكِن يَسيرُ الجود حَيْثُ يَسيرُ

ففي الشطر الثاني من البيت كناية عن نسبه لأنه يريد أن يثبت الجود للممدوح ولكنه كنَّى عن ذلك فجعل الجود ملازماً له يسير حيث يسير، ومنه قول الشاعر:

لا يَنْزِلُ المَجْدُ إلاَّ فِي مَنازِلِنا ... كَالنَّوْمِ لَيْسَ لَهُ مَأْوىً سِوَى المُقَلِ[3]

ففي الشطر الأول كناية يراد بها نسبة - هي إثبات المجد لهم - ذلك أن قصر نزول المجد على منازلهم إنما هو إثبات المجد لهم.

---

(١) مفتاح العلوم ص١٧٢، وابن الحشرج: هو عبدالله بن الحشرج من سادات قيس وأحد ولاة الدولة الأموية، كان جواداً كثير العطاء.

(٢) البيت من قصيدة في مدح الخطيب بن عبدالحميد العجمي ديوانه ص٢٩٩.

(٣) ولا تنس أن في البيت تشبيهاً ضمنياً، كما مر معك في باب التشبيه.

ومنه قول المتنبي في مدح كافور[1]:

إنَّ في ثَوْبِكَ الذي المَجْدُ فِيهِ لَضِياءً يُزرِي بِكُلِّ ضِياءِ

والأصل أن يضيف المجد والنور للممدوح ولكنه نسبهما لثوبه، وقال الشاعر:

اليُمْنُ يَتْبَعُ ظِلَّهُ وَالمَجْدُ يَمْشِي في رِكابِهْ

واليمن والمجد صفتان له ولكنه نسبهما لظله وركابه.

أمثلة القسم الثاني:

ومثال الكناية عن النسبة في النفي قول الشنفرَى الأزدي[2]:

يَبِيتُ بِمَنْجاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا إذا مَا بُيُوتٌ بِالمَلامَةِ حُلَّتِ

فهو وصف للمرأة بالعفة، ونفي للملام عنها، ولكنه لم يصرح بهذا بل نفى نسبة اللوم عن بيتها ومنه قول العرب: «مثلك لا يبخل» وهي كناية عن نفي البخل عنه، ومنه قولك: «المسلم لا يعطي الذلة» ومن هذا قول النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[3] وهي كناية عن أن من يؤذي المسلمين ليس مسلماً، وإن لم يذكر الموصوف هنا إلا أنه فهم من الحديث الشريف.

خلاصة القول: إن الكناية عن النسبة هي إثبات الصفة لغير الموصوف أو نفيها عن غيره مع أن المراد إثباتها له أو نفيها عنه.

ففي قوله: «المجد بين ثوبيه» المكني به نسبة المجد للثوبين، والمكني عنه إثبات المجد للممدوح المتحدث عنه.

هذه أقسام الكناية أرجو أن تكون قد بانت لك وظهرت أقسامها بجلاء، ولا مانع أن يشتمل المقطع الواحد على هذه الأقسام جميعاً. استمع إلى هذا القول، الذي هو نفثة فؤاد مُعَنّى، وصرخة محزون ملهوف. أصيح بها - ويعلم الله - وقد بلغ السيل الزبى،

---

(١) ديوان المتنبي ١/ ١٥٨، يزري، أي: يستهين.

(٢) المفضليات ص٤١.

(٣) سبق تخريجه، ص١٨١.

دونها تكلف ولا تصنع، راجياً أن تجد محلها في القلوب كيف لا وقد نسجت من ذكرى الخامس عشر من أيار، ذكرى اغتصاب فلسطين: «يا أبناء الصحراء ويا نبال السماء، إن عدوكم الذي أرضع لبان الحقد، وازدحمت ساحاته مكراً، واشتملت ثيابه على الكراهية واللؤم، قد لبس لكم ثوب النمر، وقلب لكم ظهر المجن ولا بد له من رابطي الجأش، مفتولي السواعد، في أثوابهم آساد هواصر، فوجهوا سهامكم إلى مجامع حقده، ومواطن غله، أليس من العار أن تسمعوه سجع الحمام، ويسمعكم زئير الأسد، فلتكن العزة حيث تسيرون، والقوة حيث تحلون وترحلون، فلتطبقوا عليه بمقابض حديدية، ولا تنسوا أن أسلافكم قد بنوا أبياتهم في الشهب، ومشوا فوق رؤوس الحقب،واستولوا على الزمان في ريعان شبابه، وزاحمت هاماتهم نجوم السماء رفعة، وعطروا بسيرتهم كل ناحية وبقعة».

هذه الكلمة إذ تأملتها وجدت فيها أقسام الكناية الثلاثة، ويمكنك أن تستخرج كل قسم على ضوء ما عرفته من قبل.

بين الكناية والتعريض:

تباينت آراء البيانيين واختلفت كلمتهم، فمنهم من ذهب إلى أن الكناية والتعريض شيء واحد، ومنهم من جعل التعريض قسماً من الكناية، وآخرون ذهبوا إلى أن الكناية تختلف عن التعريض، ولعلنا نذهب هذا المذهب، فلقد عرفت أن الكناية هي الستر، وهي أن تعبر باللفظ وتريد لازم معناه، فهناك صلة بين اللفظ المكني به والمعنى المكني عنه، حيث ينتقل الفكر من الملزوم إلى اللازم.

أما التعريض فهو إمالة الكلام إلى عُرض - بضم العين - وهو: الجانب والناحية تقول: (عرضت بفلان) وذلك إذا قلت قولاً لغيره وأنت تعنيه هو - إياك أعني واسمعي يا جارة - فالتعريض إذن أن نذكر جملة من القول نريد بها شيئاً آخر، ولكن هذا الشيء لا يفهم بطريق اللزوم كما رأينا في الكناية، وإنما يفهم من السياق. وقد حدثناك في علم المعاني في باب القصر حيث بينا لك أن القصر بـ (إنما) يدل على التعريض، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩]، ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] وقول العباس بن الأحنف[1]:

(١) دلائل الإعجاز، ص٣٤٥.

أنـــــا لَمْ أُرْزَقْ مَحَبَّتَهَـــــا إنَّـــما للعَبْـــدِ مَـــا رُزِقَـــا

ومثل قولك: «إنما الصديق عند الضيق» ففي هذا كله تعريض فارجع إليه[1].

ونزيدك هنا فنبين لك أن باب التعريض باب واسع لا يقتصر على (إنما) وحدها، خذ مثلاً قول الحماسي[2] الذي قدمناه لك في الكناية:

لا يَـسْأَلُونَ أخـاهُم حـينَ يَنْـدُبُهُمْ في النَّائِبـاتِ عَـلَى مَـا قَـالَ بُرْهانـا

وقد قدمنا لك أنه كناية عن صفة، ولكنك إذا عرفت السياق الذي قيل فيه تدرك أن فيه تعريضاً كذلك، فقد قاله الشاعر وهو يلوم قومه لأنهم لم ينجدوه، فهو في ظاهره ثناء على قوم، هم المذكورون في أول القصيدة.

لَـوْ كُنْـتُ مِـنْ مـازِنٍ لَمْ تَـسْتَبِحْ إبِـلي بَنُـو اللَّقِيطَـةِ مِـنْ ذُهْـلِ بْـنِ شَـيْبانا

وهو مع ذلك تعريض بقومه، دليل ذلك قوله:

إذاً لَقَـامَ بِنَـصْرِي مَعْـشَرٌ خُـشُنٌ عِنْـدَ الحَفيظَـةِ إنْ ذُو لَوْثَـةٍ لانَـا
قَـوْمٌ إذا الـشَّرُّ أبْـدَى ناجِذَيْـهِ لَهُـمْ طَـارُوا إليـهِ زُرافـاتٍ وَوُحْـدانا
لاَ يَـسْأَلُونَ أخـاهُمْ حِـينَ يَنْـدُبُهُمْ في النَّائِبـاتِ عَـلَى مـا قـال بُرْهانـا

ولعمرو الحق إن هذه الأبيات جديرة أن تقال اليوم، وها هم أهل فلسطين يتعرضون لأقصى أساليب البشاعة من اليهود الحاقدين، حتى إنهم ليضربونهم من الجو بسلاح الطائرات الغاشمة الأمريكية (ف١٦). كذلك المسلمون في بقاع الدنيا؛ ففي الشيشان يتعرض المسلمون إلى الحقد الروسي، وفي البوسنا يتعرضون للحقد الصربي، وفي غير هذه المواطن من المعالم، فمتى يستيقظ المسلمون؟ نرجو أن يكون قريباً.

وخذ ما حدثناك عنه من قبل «لا يجد الفأر في بيته شيئاً» فإذا عرفت أن امرأة عرضت لقيس بن سعد وقالت: «أشكو إليك قلة الفأر في بيتي» ففهم مقالتها وأجاب سؤالها، فملأ بيتها طعاماً وكساء، أدركت أن ذلك من باب التعريض.

---

(١) راجع البلاغة فنونها وأفنانها للمؤلف، ج١، ص٢٨٦.
(٢) الحماسة، ج١، ص٢٣.

ونحسب أن ابن الأثير - رحمه الله - من أكثر البيانيين الذين تحدثوا في هذا الموضوع فوفاه حقه، وإليك طرفاً من قوله: «وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: «والله إني لمحتاج وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد آذاني» فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب، لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع، وعليه ورد التعريض في خطبة النكاح كقولك للمرأة: «إنك لخلية وإني لعَزَب» فإن هذا وأمثاله لا يدل على طلب النكاح حقيقة ولا مجازاً، والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عُرضه، أي: من جانبه، وعُرض كل شيء: جانبه.

واعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً، فتأتي على هذا تارة وعلى هذا أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد ألبتة، والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنما يفهم من جهة التلويح والإشارة وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب»[1].

«... وأما التعريض فقد سبق الإعلام به وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية، فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٢-٦٣] وغرض إبراهيم عليه السلام من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم، لأنه قال: ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ وذلك على سبيل الاستهزاء وهذا من رموز الكلام، والقول فيه أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم، والاستهزاء بهم...».

---

(١) المثل السائر ص١٩٨.

«... ومن هذا القسم أيضاً قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧]، فقوله تعالى: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ تعريض بأنهم أحقُّ بالنبوة منه، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ وموازٍ لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم بها؟ ألا ترى إلى قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾.

وكان مروان بن الحكم والياً على المدينة من قِبل معاوية فعزله، فلما قدم عليه قال له: عزلتك لثلاث لو لم تكن إلا واحدة منهن لأوجبت عزلك: إحداهن أني أمَّرتك على عبدالله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفي منه، والثانية كراهتك أمر زياد، والثالثة: أن ابنتي رملة اسْتَعْدَتْك على زوجها عمر بن عثمان فلم تُعْدِها، فقال له مروان: أما عبدالله بن عامر فإني لا أنتصر منه في سلطاني، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موضعه، وأما كراهتي أمر زياد فإن سائر بني أمية كرهوه، وأما استعداء رملة على عمر بن عثمان، فوالله إنه لتأتي عليّ سنةٌ وأكثر وعندي بنت عثمان فما أكشف لها ثوباً - يريد بذلك أن رملة إنما استعدت لطلب الجماع - فقال له معاوية: يا ابن الوَزَغِ[1] لست هناك، فقال له مروان: هو ذاك، وهذا من التعريضات اللطيفة.

ومثله في اللطافة ما يروى عن عمر بن الخطاب ﷺ، وذاك أنه كان يخطب يوم جمعة، فدخل عثمان بن عفان ﷺ فقال عمر: أية ساعة هذه؟ فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، انقلبتُ من أمر السوق فسمعت النداء فما زدتُ على أن توضأت، فقال عمر: والوضوء أيضاً، وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالغسل؛ فقوله: «أية ساعة هذه» تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن المجيء إلى الصلاة وترك السبق إليها، وهو من التعريض المعرب عن الأدب.

---

(١) الوزغ: دابة صغيرة تعرف في بعض المناطق بالسحلية.

ووقفت في كتاب العقد على حكاية تعريضية حسنة الموقع، وهي أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة، فقالت: أشكو إليك قلة الفأر في بيتي، فقال: ما أحسن ما ورّت عن حاجتها، املؤوا لها بيتها خبزاً وسمناً ولحماً.

ومن خفي التعريض وغامضه ما ورد في الحديث النبوي وهو أن النبي ﷺ خرج وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول: «والله إنكم لتُجَبِّنونَ وتُبَخِّلون وتُجَهِّلون، وإنكم لمن ريحان الله، وإن آخر وطأة وطئها الله بوجّ». اعلم أن وجّاً وادٍ بالطائف، المراد به غُزاةُ حنين، وحنين: وادٍ قِبَلَ وجّ، لأن غزاة حنين أُوقع بها رسول الله ﷺ مع المشركين، وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة، أي: قتال، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال، ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله ﷺ: «وإن آخر وطأة وَطئها الله بوجّ» على ما قبله من الحديث وهو التأسف على مفارقة أولاده، لقرب وفاته، لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان، ووفاته ﷺ كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة وبينهما سنتان ونصف، فكأنه قال: وإنكم لمن ريحان الله، أي من رزقه، وأنا مفارقكم عن قريب إلا أنه صانع[1] عن قوله: وأنا مفارقكم عن قريب بقوله: «إن آخر وطأة وطئها الله بوجّ» وكان ذلك تعريضاً بما أراده وقصده من قرب وفاته ﷺ.

ومما ورد من هذا الباب شعراً قول الشَّمَيْذر الحارثي:

بَنـي عَمِّنـا، لا تَـذْكُرُوا الـشِّعْرَ بعـدما ... دَفَنْـتُم بِـصَحْراءِ الغُمَـيْرِ القَوافِيَـا

وليس قصده ها هنا الشعر، بل قصده ما جرى في هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة، إلا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر وجعله تعريضاً بما قصده، أي: لا تفخروا بعد تلك الواقعة التي جرت لكم ولنا بذلك المكان.

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن مَسْعدة الكاتب إلى المأمون في أمر بعض أصحابه، وهو: «أما بعد؛ فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول في إلحاقه بنُظرائه من الخاصة، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك

(١) أي: عرّض أو كنى.

تعدّي طاعته، فوقّع المأمون في ظهر كتابه قد عرفت تصريحك له وتعريضك لنفسك وقد أجبناك إليهما»[1].

الكناية في كتاب الله تعالى:

جرياً على ما عودناك من قبل، نذكر لك شيئاً من الكناية في كتاب الله تعالى وفي حديث النبي ﷺ.

كتاب الله هو نهاية البلاغة وهو أعلى طبقات البيان، أرفعها عماداً وأكثرها مداداً، ولأسلوب الكناية من ذلك نصيب وافر، إلا أن للكناية في القرآن الكريم أهدافاً متعددة، وأسباباً متنوعة وأغراضاً ذات شأن.

١- فقد تأتي الكناية في كتاب الله تعالى لتصور لك المعنى المعقول في صورة محسوسة، وقد عرفت ما للحسيات من أثر في النفوس.

استمع إلى قوله سبحانه وهو يرد على ذوي العقائد الفاسدة، الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومع هذا فهم إذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يقول تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨]، وقف أمام هذه الكناية البديعة الرفيعة الموحية.

قال الزمخشري: «ينشأ في الحلية، أي: يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتج به على من يخاصمه.. وفيه أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر ﷺ: «اخشوشنوا وتمعْدَدوا» وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى»[2].

---

(١) المثل السائر ٢١٢-٢١٥.

(٢) الكشاف، ٤/ ٢٤٣. (تمعددوا)، أي: عيشوا معيشة العرب الأُول، أي: عيشة خشنة فيه شظف وشدة، لا عيشة المترهلين، لأنها تؤدي إلى الترف والبطر، فتحول بينكم وبين الجهاد والعمل، واللفظ (تمعددوا) نسبةً إلى (معد) أبي العرب الأول.

واستمع إلى قوله سبحانه ينفر من البخل وينهى عن التبذير: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩]، وانظر إلى هذه الصورة المحسوسة التي تصل إلى جذور النفس، فصورة اليد المغلولة إلى العنق يمكن لكل واحد أن يتصورها بدون عناء ولا تكلف، ولم يجعلها مغلولة فحسب، ولكنها إلى العنق كذلك، ووازن بين هذا التعبير وبين قولنا: اجتنب البخل؛ تجد فروقاً كثيرة بين اللفظين، وانظر إلى قوله: (كل البسط) لتدرك أن النهي ليس عن أي حالة من حالات البسط، وإنما عن البسط الذي فيه تفريط.

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، فانظر إلى هذه الصورة في النهي عن الغيبة ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أليس النيل من العرض كتمزيق اللحم؟ وهل هناك شيء تنفر منه النفس أكثر من أكل لحم الإنسان؟ فكيف إذا كان هذا الإنسان أخاً؟! وانظر إلى قوله: (ميتاً) كيف تزيد هذه الصورة بشاعة واشمئزازاً، وإذا كان اللحم المأكول لحم ميت فكذلك المغتاب تنال منه وهو لا يدري ولا يعلم، فالقرآن يرشدنا إلى أننا ينبغي أن ننفر من الغيبة كما ننفر من هذه الصورة، صورة أكل لحم الأخ ميتاً، تلك صورة محسوسة لشيء معنوي، عبر عنها بهذه الكناية الموحية الهادفة.

وقف مع قوله سبحانه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦]، وهي كناية عن العفة، ولكن أين هذا التعبير من قولنا: «هن عفيفات»، فالتعبير القرآني يصور لنا أن هؤلاء النسوة قد قصرن الطرف عن غير أزواجهن، فهذه القناعة وتلك العفة طبيعة فيه، فهن لا يتجاوزن بنظراتهن أحداً من الرجال.

٢- ومن أهداف الكناية في القرآن الإيجاز، وإن كانت تلك ميزة في الأساليب القرآنية جميعاً، إلا أن في هذا النوع زيادة إيجاز. انظر إلى قوله سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة:٢٤]، وقد جاءت الآية الكريمة في سياق التحدي ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]، أي إن لم

تستطيعوا أن تأتوا بسورة من مثله، ولن تستطيعوا ذلك فاتركوا العناد، وانقادوا لهذا النبي وآمنوا بهذا القرآن. فانظر كيف كنى عن هذا كله وغيره بهاتين الكلمتين الجامعتين (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) وما فيهما من روعة الإيجاز ونهايته. ومثله قوله سبحانه: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج:٧٧]، وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩].

٣- ومن أهداف الكناية في كتاب الله تعالى (التهذيب)؛ لنتعلم الأدب في الحديث حتى لا تثير العبارات نزوات النفوس، وكوامن العواطف، وسهام الغرائز، أين هذا مما سموه أدباً مكشوفاً- وما هو بأدب - استمع إلى قوله سبحانه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة:٧٥]، وقف أمام قوله: ﴿يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ ، الكناية لفظ أطلق وأريد لازم معناه - كما عرفت - وماذا ينتج عن الأكل، إنه التغوُّط، ولكن القرآن اكتفى بالملزوم فكنى بالأكل عما بعده، وهذا يتنافى مع الألوهية، فما أبدع هذا المنطق وما أنظف هذا الأسلوب. واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وما تبعثه كلمة (الحرث) وتدل عليه من الغايات النبيلة.

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ﴾ [البقرة:١٨٧]، وإلى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٢١]، وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [المائدة:٦]، هذه الكنايات مع إيجازها وإيحائها حيث نستشف منها المعنى كاملاً غير منقوص، نجدها ذات أدب رفيع وهي تعلم وتهذب، وأخيراً نستمع إلى قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، تلك كناية عن موصوف، ولكي تدرك الروعة القرآنية وتسمو مع الآيات الكريمة لا بأس أن تستمع إلى بعض أقوال الشعراء من كنايات في هذا المعنى نفسه، قال أبو نواس:

أتـــتْ بجرابِهـــا تَكْتـــالُ فيـــهِ ... فَقَامَـــتْ وَهْـــيَ فارِغَـــةُ الجِـــرابِ

وقال المتنبي[1]:

إنِّي عـــلى شَـــغَفِي بِـــمَا فِي خُمْرِهـــا لأعِـــفُّ عَـــمَّا فِي سَراويلاتِهـــا

وقال الشريف الرضي[2]:

يَحِـنُّ إلى مـــا تَـضْمَنُ الخُمْـرُ والحِـلَى ويَـــصْدُفُ عَـــمَّا في ضَـــمانِ المـــآزِرِ

وهناك كنايات كثيرة ليست بخير من التصريح، آثرنا خلوّ الكتاب منها، وأظنك مع تفضيلك لكناية الرضي على غيرها، إلا أن الكناية القرآنية تبقى محتفظةً بشموخها ورفعتها وترفعها، مع وقارٍ وعفة.

ومن كنايات القرآن البديعة:

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف:٤٢]، فهذه كنايةٌ عن الندم؛ لأن النادم يفعل ذلك عادة.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [المائدة:٦٠]، أثبت الشر لمكان الشيء، كناية عن إثباته لهم وهي أبلغ في الدلالة على شرّهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:٣٣]، أي بشركاء لا يعلمهم سبحانه، وإذا كان لا يعلمهم - وهو عالم بكل شيء مما كان أو يكون، فهم لا حقيقة لهم. فهو نفي لهم بنفي لازمهم.

واعلم أن موضوع الكناية من أول الموضوعات البيانية التي تحدث عنها العلماء، تجد هذا في مجاز القرآن لأبي عبيدة، وهو من أقدم المؤلفات، حيث كان تأليفه عام مئة وثمانية وثمانين للهجرة (١٨٨هـ)، وقد تحدث فيه عن كثير من كنايات القرآن وغيرها من الأساليب البيانية، وفي هذا أبلغ رد على الذين يزعمون أن بلاغتنا بعيدة عن الأصالة تدين بالتبعية لأرسطو وغيره.

---

(١) ديوان المتنبي ١/ ٣٤٨.

(٢) ديوان الشريف الرضي ١/ ٤٤٧. الخُمْر: جمع خمار: وشاح، ويجمع أيضاً على خُمُر وأخمِرة، يصدف: يُعرض، ضمان المآزر: ما تحتويه المآزر والحزم من الخصر وما حوله.

الكنايات في أقوال الرسول ﷺ :

وإذا استعرضنا السنّة النبوية وجدنا أسلوب الكناية يؤدي دوره البياني إيجازاً وتصويراً، ووظيفته الاجتماعية تعليماً وتهذيباً، وسنذكر لك طرفاً من هذه الكنايات من جوامع كلمه ﷺ .

١- وليكن أولها قوله ﷺ : «أُعْطيتُ جوامِعَ الكَلِم»[١] وهي كناية بديعة - كما ترى - عبر بجوامع الكلم عن الكلمات المؤثرة المشتملة على المعاني الكثيرة، إلى ما هنالك من صفات للكلمة المؤثرة.

٢- ومن ذلك قوله ﷺ : «رُويدك سَوْقَكَ بالقوارير»[٢] يريد بذلك النساء فكنى عنهن بالقوارير[٣].

٣- ومنه قوله ﷺ : «خيارُكُم ألينُكُم مناكب في الصلاة»[٤] فهي كناية لطيفة، عبر بلين المناكب عن سهولة الانقياد وسرعة الحركة لسد الفرج في الصلاة.

٤- وقال ﷺ : «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقْره بين عينيه وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له، فلا يُمسي إلا فقيراً ولا يُصبح إلا فقيراً، وما أقْبل عبدٌ على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالودِّ والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع»[٥]، ففيه كنايات بديعة لطيفة، فكنى بقوله: «من كانت الآخرة همه» عن التمسك بدين الله، وبقوله: «جعل الله غناه في قلبه» عن القناعة بما قسم الله له من رزق وهكذا.

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب التعبير - باب (رؤيا الليل) (١١). ومسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - حديث (٥).

(٢) سبق تخريجه ص٢٦٤.

(٣) قدمنا لك من قبل أن هذا من باب الاستعارة، ولكننا قدمنا لك كذلك أن النص الواحد يمكن أن تنظر إليه من أكثر من حيثية واحدة.

(٤) أخرجه أبو داود في (السنن)، كتاب الصلاة، باب (تسوية الصفوف)، حديث رقم (٦٧٢)، ص١٦٠.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ١٨٣ حديث رقم (٢١٩٢٥).

٥- ومنه قول النبي ﷺ : «إنه كانت امرأةٌ فيمن كان من قبلنا وكان لها ابن عم يحبها فراودها عن نفسها، فامْتنعت عليه حتى إذا أصابتها شدة فجاءت إليه تسأله فراودها فمكّنته من نفسها، فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قالت له: لا يحل لك أن تفُضّ الخاتمَ إلا بحقه، فقام عنها وتركها»[١].

٦- وقال ﷺ : «لقد أُخفتُ في الله ما لم يُخفْ أحد وأوذيت في الله ما لم يؤذَ أحد، ولقد أتى عليّ ثلاثون ما بين يومٍ وليلة وما لي ولا لبلال من الطعام إلا شيء يواريه إبطُ بلال»[٢] وهذه كناية عن القلة.

٧- وقال ﷺ : «خِصاءُ أمتي الصِّيام»[٣] كناية عن شدة تأثير الصيام على النفس.

٨- وعن عمر بن الخطاب ﷺ : أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله هلكت. قال: وما أهلكك، قال: حوَّلتُ رحْليَ البارحة، فقال له النبي ﷺ : أقبِل وأدْبِر واتَّقِ الدُّبُرَ والحَيْضَة»[٤].

٩- ولما نزل رسول الله ﷺ على الركيَّة جاءه بُدَيل بن ورْقاء في نفر من قومه من أهل تهامة فقال: «تركتُ كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عِداد مياه الحديبية معهم العوذُ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادُّوكَ عن البيت»[٥].

---

(١) رواه البخاري كتاب البيوع، باب (٩٨) (إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي)، حديث رقم ٢١٠٢.

(٢) رواه الترمذي أبواب صفة القيامة، باب بعض ما لاقاه ﷺ أول أمره، حديث رقم ٢٤٧٤ قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) رواه أحمد بن حنبل، المسند ج٢، ص١٧٣.

(٤) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن، باب من سورة البقرة رقم (٢) حديث ٢٩٨٤ قال أبو عيسى: حديث حسن غريب.

(٥) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب (١٥) الشروط في الجهاد والمصالحة في الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٥٨١)، العوذ: جمع عائذ: وهي الناقة التي مضى على ولادتها عشرة أيام، المطافيل: يقال: طفِلَت الناقةُ طفلاً، أي: ربّت طفلها.

١٠- وقال ﷺ : «إذا مشتْ أُمَّتي المُطَيْطاءَ[١]، وخدمتها أبناء الملوك فارس والروم سُلِّط شِرارها على خِيارها»[٢].

١١- وقال ﷺ : «مَنْ يضمنُ لي ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رِجليه أضمنُ له الجنة»[٣].

١٢- ويرى أن عمرو بن العاص زوّج ولده عبدالله ﷺ فمكثت المرأة عنده ليالي ثلاثاً لم يدنُ منها. وإنما كان مُلْتفتاً إلى صلاته فدخل عليها عمرو بعد ثلاثٍ فقال: «كيف تَرينْ بعلك؟ فقالت: نِعمَ البعلُ إلا أنه لم يُفتِّش لنا كنفاً ولا قَرُبَ لنا مضجعاً».

١٣- وقال ﷺ : «المؤذنون أطولُ أعناقاً يوم القيامة»[٤].

وهذه الكنايات، وأنت تقف مع كل واحدة منها، تجد لها أهدافها المتعددة، وكنا نودّ أن نقف معك عند كل كناية، ولكن بدا لنا أن الأمر من السهولة بحيث لا يحتاج إلى شرح وتبسيط.

بلاغة الكناية:

لا نود هنا أن نفاضل بين الأساليب البيانية، أيها أكثر بلاغة، وأنفذ سحراً، وأكثر تأثيراً، فلكل أثره الذي يمتاز به عن غيره، إلا أننا نود أن نقرر هنا أن لأسلوب الكناية لونه الخاص به فهو من حيث التأثير - كما رأيت - ومن حيث الملاحة والعذوبة يشترك مع غيره من الأساليب السابقة، إلا أننا نجد فيه ما لا نجده في غيره.

فهو أولاً مع إمتاعه يمتاز بالإقناع، لأنه لا يأتيك بالدعوى إلا ومعها دليلها، ألا ترى أن قولهم: «كثير الرماد»، التي يكنون بها عن الكرم إنما جاءت دليلاً محسوساً لإثبات هذا الكرم، وكذلك كل كناية إن تأملتها، تجد أنها جاءت دليلاً على المعنى المراد منها.

---

(١) المطيطاء: التبختر ومد اليدين في المشي، وفي التنزيل: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة:٣٣].
(٢) رواه الترمذي كتاب الفتن باب رقم ٧٤ حديث رقم ٢٢٦٢، قال أبو عيسى: حدث غريب.
(٣) رواه البخاري كتاب الرقاق باب (٢٣) (حفظ اللسان) حديث رقم ٦١٠٩.
(٤) رواه مسلم كتاب الصلاة باب فضل الأذان، وهرب الشيطان عند سماعه رقم (٨) حديث رقم ٣٨٧.

وربما تقول: لقد حدثتنا عن هذا وما يشبهه، في بعض أنواع التشبيه، كالتشبيه الضمني وغيره من أنواع التمثيل، فلقد جاءت بعض التشبيهات أدلة لإثبات ما ادّعيناه، ونحن لا ننكر هذا، كيف وقد جئنا له بالأمثلة الكثيرة، ولكن مع ذلك يبقى فرق بينه وبين الكناية، فهذا في بعض أنواع التشبيه - كما رأيت - ، ولكننا نجده في كل كناية، على معنى أنه ليس كل تشبيه نجد فيه دليلاً على دعوى نريدها، إنما هو في نوع خاص منه، ولكن كل كناية كذلك، ثم إن هناك فرقاً بين التشبيه وبين الكناية كذلك، فالكناية أوجز لفظاً، ففي التشبيه لا بد من بيتين أو بيت واحدٍ على الأقل فمثال البيتين:

دانٍ إلى أيْـــدِي العُفـــاةِ وشَاسِـــعٌ عَـــنْ كـــلِّ نِـــدٍّ في النَّـــدَى وَضَريـــبِ
كَالْبَـــدْرِ أفْـــرَطَ فِي العُلُـــوِّ وَضَـــوْؤُه لِلْعُـــصْبَةِ الـــسَّارِينَ جِـــدُّ قَريـــبِ

فأنت ترى أن البيت الأول اشتمل على الدعوى، واشتمل البيت الثاني على دليل، ومثال البيت الواحد:

فـــإنْ تَفُـــقِ الأنـــامَ وأنْـــتَ مِـــنْهُمْ فَـــإنَّ المِـــسْكَ بَعْـــضُ دَم الغَـــزَالِ

فأين هذا من الإيجاز الذي نجده في قولنا: «كثير الرماد».

خلاصة القول: إن من خصائص الكناية، ومميزاتها أنها دليل على الدعوى التي نريد إثباتها، وهذا ذاتي في الكناية ولكنه عارض في بعض أنواع التشبيه.

وهناك ميزة أخرى للكناية، وهي أننا نستطيع أن نعبر بواسطتها عن كثير مما نتحاشى التصريح به، فهي باب واسع تجد النفس فيها المكمن الآمن، والطريق الذي ليس فيه خطورة ولا وعورة، والمسلك الخالي من كل ما يجلب التعب والأذى.

ألا ترى أنك بأسلوب الكناية يمكنك أن تشفي غُلة نفسك، فكم من كلمة لا تود التصريح بها ترفُّعاً، فتجد في الكناية متنفساً فتنتقل من المعنى المكشوف إلى المعنى المكسوف، ربما كان ذلك خشيةً لا ترفُّعاً، فتنال بأسلوب الكناية من خصمك وتبلغ ما لا تستطيعه في غيرها.

يقول الأستاذ علي الجارم[1]:

«الكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه وصفت قريحته، والسرُّ في بلاغتها أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيِّها برهانها كقول البحتري في المديح[2]:

يَغُضُّونَ فَضْلَ اللَّحْظِ مِنْ حَيْثُ ما بدَا لَهُمْ عَنْ مَهيبٍ في الصُّدورِ مُحَبَّبِ

فإنه كنى عن إكبار الناس للممدوح وهيبتهم إياه، بغضّ الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال، وتظهر هذه الخاصة جليةً في الكنايات عن الصفة والنسبة.

ومن أسباب بلاغة الكناية أنها تضع لك المعاني في صورة المُحسّات، ولا شك أن هذه خاصة الفنون، فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً.

فمثلاً «كثير الرماد» في الكناية عن الكرم، و«رسول الشر»في الكناية عن المزاح، وقول البحتري[3]:

أوَ مَا رَأيْتَ المَجْدَ ألْقَى رَحْلَهُ في آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوّلِ

في الكناية عن نسبة الشرف إلى آل طلحة، كلُّ ذلك يبرز لك المعاني في صورة تشاهدها وترتاح نفسك إليها.

ومن خواص الكناية أنها تمكنك من أن تشفي غلتك من خصمك من غير أن تجعل له إليك سبيلاً، ودون أن تخدش وجه الأدب، وهذا النوع يسمى بالتعريض، ومثاله قول المتنبي في قصيدة يمدح بها كافوراً ويعرّض بسيف الدولة[4]:

---

(١) البلاغة الواضحة، ص١٣٩.
(٢) ديوان البحتري ١/ ١١٧، والبيت في مدح الفتح بن خاقان.
(٣) ديوانه، ٢/ ١٦٠.
(٤) ديوان المتنبي ج٤، ص٢٦٤.

رَحَلْتُ فَكَمْ باكٍ بأجْفانِ شادِنٍ عَلَيَّ وَكَمْ باكٍ بأجْفانِ ضَيْغَمِ[1]
وَمَا رَبَّةُ القُرْطِ المَلِيحِ مَكانُهُ بأجْزَعَ مِنْ رَبِّ الحُسامِ المُصَمِّمِ[2]
فلو كانَ ما بي مِنْ حَبيبٍ مُقَنَّعٍ عَذَرْتُ وَلكِنْ مِنْ حَبيبٍ مُعَمَّمِ[3]
رَمَى وَاتَّقَى رَمْيِي وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هَوىً كاسِرٌ كَفِّي وَقَوسِي وَأسْهُمِي[4]
إذا ساءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ[5]

فإنه كنى عن سيف الدولة أولاً بالحبيب المعمم، ثم وصفه بالغدر الذي يدّعي أنه من شيمة النساء، ثم لامه على مبادرته بالعدوان، ثم رماه بالجبن لأنه يرمي ويتقي الرمي بالاستتار خلف غيره، على أن المتنبي لا يجازيه على الشر بمثله؛ لأنه لا يزال يحمل له بين جوانحه هوىً قديماً يكسرُ كفه وقوسه وأسهمه إذا حاول النضال، ثم وصفه بأنه سيئ الظن بأصدقائه لأنه سيئ الفعل كثير الأوهام والظنون، حتى ليظن أن الناس جميعاً مثلُهُ في سوء الفعل، وضعف الوفاء، فانظر كيف نال المتنبي من سيف الدولة هذا النيل كله من غير أن يذكر من اسمه حرفاً.

هذا ومن أوضح ميزات الكناية: التعبير عن القبيح بما تُسيغُ الآذان سماعه، وأمثلة ذلك كثيرة جداً في القرآن الكريم وكلام العرب، فقد كانوا لا يعبرون عما لا يحسن ذكره إلا بالكناية، وكانوا لشدة نخوتهم يكنون عن المرأة بالبيضة والشاة.

ومن بدائع الكنايات قول بعض العرب:

---

(١) الشادن ولد الغزال، والضيغم: الأسد، أراد بالباكي بأجفان الشادن: المرأة الحسناء، وبالباكي بأجفان الضيغم: الرجل الشجاع، يقول: كم من نساء ورجال بكوا على فراقي وجزعوا لارتحالي.

(٢) القُرط: ما يعلق في شحمة الأذن، والحسام: السيف القاطع، والمصمم الذي يصيب المفاصل ويقطعها.

(٣) أراد بالمقنع: المرأة لأن سمتها القناع، والمعمم: الرجل لأنه يلبس العمامة. يقول: لو كان الذي أشكوه (الغدر بي) من امرأةٍ لعذرتها ولكنه من رجل.

(٤) المعنى: إن حبي إياه منعني عن المكافأة بالإساءة، عبَّر بالرمي عن الإساءة وعن أمنه من المكافأة بالهجاء بالاتقاء.

(٥) المعنى: المسيء يسيء الظنّ وما يخطر بقلبه من التوهم على إساءة غيره يصدق ذلك؛ فكلما سمع عن غيره كلام سوء ظنه فيه.

ألاَ يَـــا نَخْلَـــةً مِـــنْ ذاتِ عِـــرْقٍ عَلَيْـــكِ وَرَحْمَـــةُ الله الـــسَّلامُ

فإنه كنى بالنخلة عن المرأة التي يحبها».

ولعل عبدالقاهر أشار لكثير من هذا حينما حدثنا عن الكناية بأنها أبلغ من الإفصاح، وليس معنى هذا أنها تدل على الكثرة من حيث الكمّ - كما يقولون - فقولنا: «فلان كثير الرماد» لا يُفهم منه أنه يدلّ على كثرة الكرم، أكثر من قولنا: هو جواد لا يبخل بشيء، لكن الكناية أكثر تأثيراً في النفس وأكثر تأكيداً للمعنى الذي نريد. يقول الشيخ رحمه الله:

«قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلاً، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة، إلا أن ذلك وإن كان معلوماً على الجملة، فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته، وحتى يُغَلْغِل الفكر إلى زواياه، وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة، فنحن وإن كنا نعلم أنك إذا قلت: «هو طويل النجاد» و«هو جم الرماد». كان أبهى لمعناك، وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد، وكذا إذا قلت: «رأيت أسداً» كان لكلامك مزية لا تكون إذا قلت: «رأيت رجلاً هو والأسد سواء في معنى الشجاعة، وفي قوة القلبْ وشدة البطش وأشباه ذلك»، وإذا قلت: «بلغني أنك تقدِّم رجلاً وتؤخِّر أخرى». كان أوقع من تصريحه الذي هو قولك: «بلغني أنك تتردد في أمرك» وإنك في ذلك كمن يقول: «أخْرُج ولا أخْرُج» فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى. ونقطع على ذلك حتى لا يخالجنا شك فيه فإنما تسكن أنفسنا تمام السكون إذا عرفنا السبب في ذلك والعلة، ولم كان كذلك، وهيأنا له عبارة تُفهِم عنا مَن نريد إفهامه. وهذا هو القول في ذلك.

اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدّعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، لكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها. تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا: «إن الكناية أبلغ من التصريح» أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد. فليست المزية في قولهم: «جمُّ الرماد»، أنه دلّ على قِرىً

أكثر بل إنك أثبت له القِرَى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجاباً هو أشد، وادعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق».

«... أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح؛ أن كل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غُفلاً؛ وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يُشكّ فيه ولا يُظَن بالمُخبِر التجوزُ والغلط»[1].

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق رشيد رضا، ص٥٥.